

كيف نجيب العمل الى الصبيان

وقيمة العمل في المجتمع

من أقوال برنارد شو إن الرجل الصالح هو الذي يترك العالم عند وفاته وقد أنتج له أكثر مما استهلك منه . وقد نجد أقيسة أخرى للرجل الصالح ، ولكن لا شك في أن هذا القياس كاف ، لأن الشخص الذي يستهلك في حياته أكثر مما ينتج إنما يعيش بعض حياته عالية على كد غيره ، وليس هذا مستمناغا إلا في ظروف خارجة عن إرادته كأن يموت الأبو ان قبل أن يبلغ سن العمل أو كأن يصاب بمرض يعوقه عن الانتاج .

ومن هنا كانت الضرورة المحتومة على كل مجتمع أن يعلم أفراداه قيمة العمل ويعوّدهم طادات العمل المنظم ويوجههم وجهة الانتاج منذ أيام الطفولة ، حتى ينشأ الفرد وهو يحس إحساسا يكد أن يكون إيمانا بأن العمل فرض يقتضيه الصلاح الإنساني وأنه لا يجوز للرجل البار أن يعيش دون أن ينتج .

إن للجرائم أسبابا كثيرة ليس جهل هذه الحقيقة أقلها . فان كثيرا من الناس ينشأون في بيوت قد سادها التذليل فقضوا صباهم وهم يحدون ما يطلبون بلا ضناء كأن الأشياء تأتي اليهم بمجرد طلبها ، ينادون فيستجاب لهم ويأمرون فيطاعون . وهذا الأسلوب الذي تعلموه في الصبا يلازمهم في الشباب والكهولة ، فكأنهم يريدون أن يعيشوا دون أن ينتجوا وما ذلك إلا لأنهم لم يتعودوا العمل منذ صباهم . وأمثال هؤلاء قد يستطيعون العيش هانئين وادعين اذا كانوا قد ورثوا عقارا يغل ريبا يؤمنهم ويكفيهم عند الحاجة ، ولكنهم حين لا يجدون مثل هذا الرزق المورث يتجهون نحو الإجرام ، لأن المحرم يرى أيسر عليه أن يخطف أو يسرق أو يفش أو يزور من أن يقهر نفسه كل يوم على العمل لكي يكسب آخر الشهر أو آخر الأسبوع ما يعيش به إذ هو لم يتعود هذه المرانة التي تعد نفسية كما هي بدوية أو ذهنية ، لأن المتعمر على العمل لا يستطيع أن يرتاح الى البطالة ، بل إنه ليجد السعادة في مداومة هذا العمل ، وهي واجب مطلوب كما هي حق منشود له لذته بل له سحره .

ولذلك يتجه الإصلاح في السجون على الدوام الى تعليم المسجون عملا يمكنه أن يعيش منه حين يفرج عنه . ولكن يجب ألا نخدع أنفسنا . فان العمل لا ينقص المسجونين . وإنما المرانة النفسية والرغبة الاجتماعية هما ما ينقصانهم . وصحيح أن كثيرا من المسجونين لا يحذق عملا معيناً . ولكن لو كان كل من لا يحذق عملا يمنح إلى ارتكاب جريمة لكي يعيش لامتلات

سبحوننا بمئات الألوف . والواقع أن هناك كثيرين من الناس يعملون وينتجون في غير حذق لصناعة معينة . ومع ذلك فالمجتمع محتاج إلى عملهم هذا مهما بعد عن حدود الكمال والاتقان . وهذا هو الشأن مثلا في " الفاعل " الذي يعمل بلا حذق فيخدم يوما في تمهيد الطريق ، ويوما في بناء المنزل أو في غير ذلك . وإنما هو يمتاز بشيء واحد هو أنه يحس في نفسه ميلا إلى العمل وإقبالاً عليه . وكرها للبطالة وعدم ارتياح إليها ، وهذا ما نسميه المرانة النفسية للعمل التي نشأت من أنه اتجه منذ صباه إلى أنه لكي يعيش يجب أن يعمل وينتج وصار له هذا الاتجاه أسلوبا للحياة فوفاه من الإجماع والسجن .

ولهذا السبب يجب أن نعزّد الصبي العمل . ويجب أن نبدأ به وهو طفل في الخامسة أو السادسة من العمر بأن نكلفه بعض الواجبات الخفيفة التي لا يقصد منها غير المرانة والاتجاه وغرس الأسلوب السلوكي . ونحن في مصر نحتقر عمل البيت ونستكثر من الخدم لأن أجور الخدم — وخاصة عندما نجلبهم من الريف — رخيصة جدا . ولذلك لا نطلب من أولادنا تنظيف إحدى الغرف أو ترتيب الكراسي أو وضع المائدة . وقد تشب الفتاة إلى أن تبلغ الخامسة عشرة وهي مع ذلك تجهل أصول الطبخ . وقد تعارض أمنها في تعليمها الطبخ لأنها — كما تقول — سوف تكون لها خادمة تهىء لها الطعام . ولكن ليست قيمة الطبخ هنا اقتصادية وإنما هي أخلاقية إذ هي اشعار الفتاة بضرورة العمل وقيمه وأن الإنسان في هذه الدنيا يجب — لكي يعيش — أن ينتج وينفع .

وإلى أن المغزى هنا أوقع فعلا وأبلغ أثرا في الفتي أكثر منه في الفتاة . لأن مجتمعنا يطالبه بالإنتاج أكثر مما يطالبها . فيجب لهذا السبب أن نبدأ معه وهو في سن الطفولة ، وأن نهين له مكافآت مالية — غير مصروفة اليومية — لأعمال مختلفة يؤديها حتى ينغرس في ذهنه مبدأ الكسب من العمل .

وهنا نجد شيئا لا يجوز أن نفعله . فإن القاضي لندسى الذي قضى نحو عشرين سنة وهو ينظر في قضايا الصبيان المجرمين يرى أن الإجازة المدرسية السنوية تطول أكثر مما يجب وهي بطولها تعزّد الصبيان عادات التشرّد واللعب وقضاء الأيام المتوالية بلا واجبات يكلفونها . ولذلك ينصح بالآ تزيد الإجازات المدرسية السنوية على أسبوعين . ويجب أن نذكر هنا أن الإجازات السنوية في كل من أمريكا وأوروبا لا تزيد على شهرين . وهي عندنا تبلغ أحيانا أربعة أشهر . ولا بد أن لهذه المدة الطويلة أثرا سيئا في الأخلاق من حيث الإهمال للمرانة النفسية على العمل ، وفي التقدم الدراسي من حيث الإهمال لذاكرة . ونظن أن هذا الموضوع يستحقّ الدرس وإعادة النظر عند رجال وزارة المعارف .

والصبي في الريف يختلف من هذه اللاحية من الصبي في المدينة . لأن الأول يجد في الأعمال الزراعية الكثيرة ومصاحبة أبيه أو أمه إلى الحقل ومساعدتهما في واجباتهما ما يجعله يحس كرامة العمل وضرورته ويتخذ من العمل والانتاج شاغلا لحياته . أما صبي المدينة فلا يجد هذا الخافز وقت تعطله من المدرسة سواء أكان هذا التعطل جزءا من اليوم أم أياما متوالية في إجازة طويلة . وهذا هو السبب في أن الصبيان المحرمين ينبتون وينمون في بيئة المدينة لا في بيئة الريف . ومستفرخ جرائمهم هو الشارع والزقاق والبرام وأما كفن اللهو . ومثل هذا التعطل واستنباط الحيل لاستغلاله بالاجرام لا يوجدان في الريف .

وخلاصة القول إننا يجب أن نفرس حب العمل في الصبيان وأن نجعل العمل عندهم حاجة نفسية وكرامة انسانية وعقيدة راسخة بحيث يحسون حين يشبون أنه ليس من حق أحد أن يعيش ما دام لا ينتج . ويجب لذلك أن نجعل تعطلهم قصيرا مملوا بالألعاب المفيدة المرفهة . لا طويلا ينسبهم عادة العمل . كما يجب أن نطبع أن تعلمهم صناعة يعيشون منها تشعرهم بفائدتهم وتبهم من التعطل . وتشعرهم قبل كل شيء بأنهم يتعاونون مع المجتمع بعملهم وكدهم حتى يحسوا أن هذا المجتمع هو صديقهم يتبادلون وإياه المنفعة وأنهم ليسوا عيالا عليه يقتنصون منه الفائدة دون أن يردوا عليه . منها من كدهم .

ويجب ألا نرمي من قيمة العمل وتحييه إلى الصبيان إلى غاية اقتصادية لأن الغاية الأخلاقية هنا أهم وأخطر . فإن الأخلاق إنما تلم بالمرولة . فتحن نحس البر حين نتصدق ونسعف الفقير ونجبر المهيبض . ونحس الوطنية حين نكتب لمشروع عام . وهكذا الشأن في الخدمة . فإن الصبي وهو يخدم عائته أو أصدقاءه يحس التعاون والكرامة . وهذا التعاون هو حب عام للمجتمع يحول دون الجريمة . وهذه الكرامة هي كبرياء وشخصية تمنع من ارتكاب الدنايا .

من روائع الأدب العربي

قال نصير الدين الحامى المصرى يصف داره :

وذا رخرابها قد نزلت	ولكن نزلت الى السابعة
فلا فرق بين أنى أكون	بها أو أكون على القارة
تساورها هفوات النسيم	فتصفى بلا أذن سامعة
وأخشى بها أن أقيم الصلاة	فتمسجد حيطانها الراكمة
إذا ما قرأت : إذا زلزلت ،	خشيت بأن تقرأ الواقعة